﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾ [آل عمران: 155]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيّنَ تعالى مُعلِّلًا ومُنبِّهًا غناه عنِ الاختبار، وخبرتَه بدقائقِ الأسرارِ؛ أتبعَه مُستأنِفاً ببيانِ ما هو من ثمراتِ العلمِ والدّراية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾ أي عنِ القتال ومقارعةِ الأبطالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، أي: منَ المؤمنين والكفّار[1].

وبعد أن بيَّن لهم تعالى أيضًا مرتبةَ حقِّ اليقين بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فوضَّح لهم أنّه إن كان للأسباب تأثيرٌ فسببُ مصيبتِهم هي أفعالُهم التي أملاها الشّيطانُ عليهم وأضلَّهم بها، فلم يتفطّنُوا إلى السّبب، والتبسَ عليهم بالمُقارَن، ومن شأن هذا الضّلالِ أن يحول بين المُخطئ وبين تدارُكِ خطئه، ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض منَ العلمِ الصحيحِ، وتزكيةِ النُّفوسِ، وتحبيبِ الله ورسولِه للمؤمنين، وتعظيمِه عندهم، وتنفيرِهم منَ الشّيطانِ، والأفعالِ الذّميمةِ، ومن معصيةِ الرّسولِ، وفيه تسفيهُ أحلامِ المشركين والمنافقين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: الوَاوُ واللَّامُ والياءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ[3]. وقولُهم تولَّى إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولاية، والإقبالِ على الشيء، وإذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراضِ وترك القُربِ. والتّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاءِ والائتمار، ويقال: ولّاه دُبُرَه: إذا انهزمَ[4]، وهو المعنى هنا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وَلَيَ).
(4) الراغب، المفردات: (ولي).

فكلُّ (تولَّى عن، وتولَّ عن) فهي بمعنى الانصراف، وقد يأتي الفعل(تولّى) بمعنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا متعدّيًا بنفسه[1]. كما في لفظ الآية الكريمة، والله أعلم.

2) ﴿ٱلۡتَقَى﴾: اللَّامُ، وَالقَافُ، واليَاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا تَوَافي شَيْئَيْنِ، وهو: اللِّقَاءُ: المُلَاقَاةُ وَتَوَافي الِاثْنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ[2]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيْئًا أو صادفَه فقد لقِيَه[3]. واللّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفَتُه مَعًا، ويُعبَّر بِهِ عَن كلٍّ مِنْهُمَا، ويقالُ ذلكَ في الإدْراكِ بالحسِّ، والبَصَرِ، وبالبصيرة. وملاقاةُ الله ﷻ عبارةٌ عنِ المصير إليه. وسُمِّيَ يوم القيامة بـ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلك لالتقاء من تقدَّم ومن تأخَّر، والتِقَاءِ أهل السَّماء والأرض، وملاقاةِ كلِّ أحدٍ بعملِهِ الذي قدَّمَهُ[4]. وكلّ (لَقِي) و(التقى) ومضارعُهما فهي بمعنى المقابلة[5].

3) ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: الجيمُ وَالميمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، يُقَالُ جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا[6]، والجمعُ: ضمُّ الشّيء بتقريب بعضِه من بعضٍ[7]، وتضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا أو تلاحمًا أو تراكمًا، وعُمِّم في كلِّ جَمْعٍ لمالٍ أو ناسٍ[8]. ومعنى اللَّفظ في الآية الكريمة: جَمْعَا المؤمنين والكافرين في معركة أُحدٍ، والله أعلم.

4) ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ﴾: الزَّايُ وَاللَّامُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ في المُضَاعَف، وَكَذَلِكَ في كُلِّ زَايٍ بَعْدَهَا لَامٌ في الثُّلَاثِيِّ، وهذا مِنْ عجيبِ هذا الأَصْلِ، وَالزَّلَّةُ: الخَطَأُ؛ لِأَنَّ المُخْطِئَ زَلَّ عَنْ نَهْجِ الصَّوَابِ[9]، وأزلّه الشَّيْطانُ عنِ الحقّ: أضلَّه[10]، واسْتَزَلّهُ غَيَّرَهُ[11]، وأزلَّه: اسْتَفَزَّه، وقيل: أزالَهُ[12]، وزلَّ يزلُّ إذا زلقَ، بفتح اللامِ وكسرها، أراد أنه تزلُق - بضم اللام في

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(2) ابن فارس، المقاييس: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (لقا).
(4) الراغب، المفردات: (لقى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَمَعَ).
(7) الراغب، المفردات: (جمع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَلَّ).
(10) الخليل، العين: (زلّ).
(11) الجوهري، الصحاح: (زلل).
(12) ابن سيده، المحكم: (زلل).

المضارع وفتحِها - عليه الأقدامُ ولا تثبت، وأزلَّهُ الشيطان، أي: حمله على الزّللِ وهو الخطأُ والذّنبُ[1]، والزلّةُ في الأصل: استرسالُ الرِّجْل من غير قصدٍ، وقيل للذنب من غير قصد: زلّةٌ، تشبيهًا بزلّة الرِّجْل، واستزلّه: إذا تحرّى زلّتَه، وقولُه: ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: استجرَّهم الشّيطانُ حتى زلُّوا؛ فإنَّ الخطيئةَ الصغيرةَ إذا ترخَّص الإنسانُ فيها تصيرُ مُسهِّلةً لسبيل الشَّيطان على نفسِه[2]، ورُجّح في اللّفظةِ معنى: أنّ الشّيطانَ حملَهم على الزّلل بمَكرٍ منه، فاستفعل هنا بمعنى أفعَلَ[3]، باستبعاد معنى الطّلب.

5) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: اختُلف في أصلِه: أهو من (فَيْعال) من (شَطَنَ)، أي: بَعُدَ[4]، والنّونُ فيه أصليةٌ، ودَلالةُ البُعد أصلٌ فيه[5]، وفي تسميتِه بذلك قولان: إمّا لبُعده عنِ الخير، أو الحقِّ أو عن رحمة اللّه، وتمرّدِه[6]؛ إذْ "خالفَه عن نيّته ووجْهِهِ"[7]، وإمّا "لبُعدِ غورِه في الشّرّ"[8]. أو هو (فَعْلان) من (شاطَ يَشِيطُ) ونونُه زائدةٌ، ويدلُّ على ذهاب الشّيء إمّا احتراقًا وإمّا غيرَ ذلك كالهلاك والبُطلان[9]، والطّردِ طردًا دائمًا حتى يعيَا[10]، فعلى هذا سُمّي بذلك؛ لأنه غارقٌ بالمعصية التي تؤولُ به إلى الهلاك[11]. ومنَ الدّلالاتِ الأخرى المستنبطةِ من أصْلَيْهِ المُتقدّمَيْن: الكِبْرُ، والالتواءُ، والاعوجاجُ. يقال: بئرٌ شطون: ملتويةٌ معْوجّةٌ، ورمحٌ شطون: طويلٌ أعوجُ[12]. وخلاصةُ وصْفِه، ومِلاكُ تصوّرِه: أنّه كلُّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجن، والإنس، والدّوابِّ[13].

6) ﴿كَسَبُوا۟﴾: الكَافُ والسِّينُ والبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وهو يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ،

(1) ابن الأثير، النهاية: (زلل).
(2) الراغب، المفردات: (زلّ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(4) الخليل، العين: (شَطَنَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375، والزبيدي، تاج العروس: (شَطَنَ).
(7) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(8) نزهة الاعين النواظر، ص: 375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شَيَطَ).
(10) ابن عباد، المحيط: (شوط).
(11) وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375.
(12) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (شَطَنَ).
(13) مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، ونزهة الأعين النواظر، ص: 374.

وَإِصَابَةٍ[1]، وهو في الأصلِ: الطلبُ والسّعيُ في طلب الرزق والمعيشة[2]، فالكسبُ: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفع، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المالِ، وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسانُ أنه يجلبُ منفعةً، ثم استُجْلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كسبتُ فلانًا كذا[3]، وهو أيضًا: جَمْعُ الشّيء وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهْدٍ ما، أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ فرائسَها مرةً بعد أخرى، وكما يُجمع المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيءٍ، ومنه: الكَسْبُ: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[4]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه الاستمتاعُ بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذُّذًا، ومتعةً، ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: مفارقةُ موقفِهم على الجبل، وعصيانُ أمرِ الرّسول في المعركة، والتّنازعُ، والتّعجيلُ إلى الغنيمة[5] وغيرُه منَ المعاني بحسبِ ما سيأتي بيانُه في الشّرح البلاغيِّ.

7) ﴿عَفَا﴾: العَيْنُ والفَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، العَفْوُ: عَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلقِهِ، وَذَلِكَ تَرْكُ مؤاخذته إِيَّاهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، فَضْلًا مِنْهُ[6]، و"العفوُ: تركُكَ إنساناً استوجَبَ عُقوبةً فعفوتَ عنه تعفُو، واللّه العَفُوُّ الغَفور"[7]، والأَصْلُ فِي (عَفَا اللّه): محا ذنُوبَ عبدِه عَنهُ، وهو مَأْخُوذ من قَوْلهم: عفتِ الرِّيَاحُ الآثَارَ إِذا درسَتْها ومحَتْها، وهو التّجاوُزُ عنِ الذنْبِ وتركُ العقاب عليه، وأصلُه المحوُ والطّمسُ[8]، وغالب ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى الصَّفح[9].

8) ﴿غَفُورٌ﴾: أصلُ الغَفْر: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، وَغفر اللّه ذنوبَه: أَي سَترها وَلم يَفْضَحْهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ، وكلُّ شَيْء سترتَه بقصد الحمايةِ وما إليها فقد غفرتَه[10]، والغفرُ:

(1) ابن فارس، المقاييس: (كَسَبَ).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كَسَبَ).
(3) الراغب، المفردات: (كَسَبَ)، والجرجاني، التعريفات، ص: 236.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كَسَبَ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَفَو).
(7) الخليل، العين: (عفو).
(8) ابن الأثير، النهاية: (عفا).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).

إلباسُ ما يصونُه عنِ الدنس، والغفرانُ والمغفرةُ منَ اللّه هو أنْ يصونَ العبدَ من أن يمسَّهُ العذابُ[1]، والغفور، والغفّار من صِفَاته جلّ ثَنَاؤُهُ وتقدّست أسماؤُه[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ التَّركيب هو من مغفرة الذّنوب[3].

9) ﴿حَلِيمٌ﴾: الحَاءُ وَاللَّامُ وَالميمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أحدُها: تَرْكُ العَجَلَةِ، والحِلمُ خِلَافُ الطَّيْشِ. يُقَالُ حَلُمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ، فَأَنَا حَلِيمٌ[4]، أي: ضبطتُ النّفسَ والطبعَ عن هيجان الغضب، وجمعُه أحلام، وفُسِّرَ الحلمُ بالعقل؛ لكونِه من مسبّباته[5]. فالحِلمُ: الأناةُ. والحليمُ في صفة اللّه تعالى، معناه: الصَّبورُ[6]، الذي لا يستخفُّه شيءٌ من عصيان العبادِ ولا يستفزُّه الغضبُ عليهم، ولا يعجلُ بالعقوبةِ[7]، فهو ذو أناةٍ لا يعجلُ على عباده بعقوبتِهم على ذنوبِهم[8]، وكذا كلُّ صفةِ (حليم) في القرآن للّه ﷻ، أو للبشر، وللّه المثلُ الأعلى[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ علّةِ الهزيمةِ والتعطّفِ بإعلان العفوِ

يخبرُ تعالى عن حالِ الذين انهزموا يوم "أُحدٍ"، وعن الباعثِ الذي أوجبَ لهم الفرارَ، بأنَّ تلك المجموعةَ من الرُّماةِ كانوا سببَ تلك الجِراح بفرارِهم من موقعة أُحدٍ؛ طلبًا للغنيمة، وقد وقعُوا فيما وقعُوا فيه بسببِ أنَّ نفوسَهم لم تتَّجهْ إلى اللّه بكلّيتِها، ولهذا أوقعهم الشّيطانُ ببعض ما عملوا منَ الذّنوبِ، وزيَّن لهم الزّللَ والمعصيةَ، فترتَّبَ على ذلك أن مُنعُوا النَّصرَ والتأييدَ وقوةَ القلب والثّبات، ولقد تجاوزَ اللّه عنهم فلم يعاقِبْهم؛ فضلًا منه ورحمة، فمن صفات اللّه أنه غفور للمذنبين التائبين، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة[10].

(1) الراغب، المفردات: (غَفَرَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (غَفَرَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَلُمَ).
(5) الراغب، المفردات: (حَلُمَ).
(6) الخليل، العين: (حَلُمَ).
(7) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 5/117.
(9) وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(10) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 70.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّ أعمالَ العبْدِ تسوقُه قسرًا إلى مقتضاها منَ الخيرِ والشّرِّ، والعبدُ لا يشعرُ أو يشعرُ ويتعامَى[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

سببُ الهزيمةِ الخفيُّ طمعُ الشَّيطانِ بأفعالهم

لما نبَّه سبحانه على أنه غنيٌّ عنِ الاختبار، خبيرٌ بدقائقِ الأسرار، أتبعَه قولَه مُستأنِفاً لبيانِ ما هو من ثمراتِ العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ﴾[2]، وهو استئنافٌ لبيانِ سببِ الهزيمةِ الخفيّ، وهي استزلالُ الشّيطانِ إياهم[3].

غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ التّولِّي:

تولِّي المُستَزِلِّين كان عن تكلُّفٍ شديد

يُستعمل التَّولِّي بمعنى الإقبالِ وبمعنى الإدبارِ، فإن كان متعدِّيًا بنفسِه كان بمعنى الإقبالِ، وإن كان متعدّيًا بـ (عن) أو غيرَ متعدٍّ أصلًا كان بمعنى الإعراضِ، ومنه الإدبارُ عنِ الزَّحف والأمرِ في وقته، وهي هنا لذلك[4]، وعبّرَ عنه بصيغة التّفعّل للمبالغةِ في تولِّيهم لما تتضمّنُه الصِّيغةُ من معنى التّكلُّفِ والتّعمّلِ، واللّه أعلم.

سرُّ عدمِ تعيين فاعلِ التَّولِّي:

الاكتفاءُ بالمذكور للدَّلالةِ على مُطلقِ التَّولِّي

"وظاهرُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ يدلُّ على مُطلقِ التَّولِّي يومَ اللّقاء"[5]، ويشملُ فريقَيْن: أحدُهما الذين أقبلُوا على الغنيمة وتركوا مواقعَهم منَ الرِّماية؛ فأُولئك بتركِهم مواقعَهم وإقبالَهم على الغنيمة كانوا مُدبرين يُشبهون الفارِّين، والآخرُ: الذين فرُّوا منَ القتال يومَ أنِ اضطربتِ الموقعةُ وأصيب المؤمنون بجراحٍ، وكانت فيهم مقتلتُهم

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1465.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.

سواءً فرَّ إلى المدينة، أم صعدَ الجبلَ[1]، وفي عدم تعيين المتولِّين إطلاقٌ لاشتمالِ الفعلِ لكلِّ من يصح أن يتَّصفَ به.

والمرادُ منَ الذين تولَّوا نفسُ المخاطَبين بقولِه: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، وضميرُ ﴿مِنكُمْ﴾ راجعٌ إلى عامّةِ جيشِ أحُدٍ، فشملَ الذين ثبتُوا ولم يفرُّوا، وعن السُّدّي أنّ الذين تولَّوا جماعةٌ هربوا إلى المدينة[2].

تعريفُ اليومِ بالإضافةِ:

وأرادَ بـ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ يومَ أحُدٍ[3]، والتّعريفُ بالإضافة أدلُّ هنا من غيره وأخصُّ في تحديد الواقعة، وجملةُ ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ حصرٌ للتّولّي في أثناء المعركة.

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ الجمعِ:

فريق المؤمنين يوازي فريق المشركين وإن قلَّ عددًا

الجمعُ: المجموعُ منَ النّاس وهو على وزن فَعْل، مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ للمبالغةِ، عُبِّرَ به عن اسمِ الذّاتِ لتوكيدِ المبالغةِ. والمعنى: جمعُ المؤمنين، وجمعُ المشركين، فلذلك صحّتْ تثنيتُه[4]، ويُعزّزُ هذا المعنى: التّعبيرُ عن فعل التّلاقي بصيغةِ التفعّل ﴿ٱلْتَقَى﴾؛ للدّلالةِ على مشاركةِ طرفَي القتال من مؤمنين وكافرين، وإطلاقُ الجمعِ على الفريقين مع التّفاوت في العددِ، إمّا للتّغليب، وإمّا لبيان تساوي الفريقين، فاختلاف العدد لا يعني اختلاف الموازنة بينهما، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

الاستعارةُ في لفظِ الزّللِ للتّعبيرِ عن معنى الانْهزامِ:

والزّللُ مستعارٌ لفعلِ الخطيئةِ، والمرادُ به الانهزامُ، وإطلاقُ الزَّللِ عليه معلومٌ مشهورٌ كإطلاقِ ثباتِ القدمِ على ضدِّه وهو النَّصرُ، قال تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [آل عمران: 147][5].

(1) رضا، تفسير المنار: 4/157، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.

بَلاغةُ التَّعبير بصيغةِ الاستفعال:

الاســـتـــزلالُ استدراجٌ للوقوعِ في حالٍ أدنى من السَّابقةِ

استزلَّ للمبالغةِ في أزلّ، واستزلّهم الشّيطانُ أي: حملَهم على الزّللِ بمكرٍ منه، فاستفعلَ هنا بمعنى أفعل[1]، وذهب كثيرٌ منَ المفسِّرين إلى أنَّ معنى السين والتَّاء هو الطَّلب، أي: طلبَ منهم الزّللَ ودعاهم إليه؛ لأنّ ذلك هو مقتضى وسوستِه وتخويفِه[2].

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ معنى السِّين والتَّاءِ هو التَّأكيدُ، حيث قال: "أي: جعلهم زالّين، والسِّين والتَّاء فيه للتأكيدِ، مثل استفادَ واستبشرَ واستنشق، ولا يحسنُ حملُ السِّين والتَّاء على معنى الطلبِ؛ لأنّ المقصودَ لومُهم على وقوعِهم في معصيةِ الرّسولِ، فهو زللٌ واقعٌ"[3]، فالمعنى هنا: التّحوّلُ من حالٍ إلى حالٍ بجعْلِهم زالِّين وهو منَ المعاني المحتملةِ لصيغة الاستفعال.

سرُّ إظهارِ الفاعلِ:

مـواضـعُ المهانةِ والمعصية مقترنةٌ بالشَّيطانِ

وعدلَ النَّظمُ عن إضمارِ الفاعلِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى إظهاره جريًا على الأصل، فنسبَ مُنْكَرَ الفِعَال إلى الشَّيْطَانِ للدَّلالةِ على أنَّ المعاصيَ لا تُنْسَبُ إلى الله[4]، وهي موضعُ إهانةٍ وتحقيرٍ، والإظهارُ أنسبُ؛ لأنّ موردَ الذِّكْر في مواطن الخيبةِ والشَّرِّ، يناسبُه التَّصريحُ ترسيخًا للمهانةِ والنَّبذِ، كما يُناسبُ مواطنَ التَّشريف إظهارُ الأسماءِ الشَّريفةِ.

عِلّةُ حذفِ متعلَّقِ الزَّلِ:

فـــي مـــواطـــنِ الإحـــســـان قـد يُـنـأى عـن ذكـرِ وجوهِ العِصيانِ

لم يُبيِّنْ تعالى في أيِّ شيءٍ استزلَّ الشّيطانُ المتولِّين؛ إذ لا حاجةَ إلى تعيين المعصيةِ مع العَفوِ، لكنَّ العلماءَ جوّزُوا أن يكونَ المرادُ بذلك تحوّلَهم عن ذلك الموضعِ، بأنْ يكون رغبتَهم في الغنيمة، وأن يكونَ فشلَهم في الجهاد وعدولَهم عنِ الإخلاص[5].

(1) أبو حيان، التحرير والتنوير: 3/98، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/530، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139 - 140.
(4) ابن عادل، اللباب: 6/4.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.

معاني حرفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوٓاْ﴾:

معنى السّببيةِ إثباتُ أنَّ ما أصابَهم هو بسببِ الشّيطان

اختلف المفسِّرون في معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوٓاْ﴾ على أقوالٍ:

القولُ الأوّل: للسّببيةِ، وله وجهان:

الوجه الأوَّل: أي: إنَّ بعضَ ما كسبوا قد كان سببًا لزلّتِهم، وأريدَ ببعض ما كسبوا مفارقةُ موقفِهم، وعصيانُ أمر الرّسولِ، والتّنازعُ، والتَّعجيلُ إلى الغنيمة، والمعنى: أنّ ما أصابَهم كان من آثارِ الشّيطانِ، رماهم فيه ببعضِ ما كسبُوا من صنيعِهم، والمقصدُ من هذا إلقاءُ تبعةِ ذلك الانهزام على عواتقِهم، وإبطالُ ما عرّضَ به المنافقون من رمْيِ تبعتِهِ على أمرِ الرّسول ﷺ بالخروجِ، وتحريضِ الله المؤمنين على الجهاد، وذلك شأنُ ضعاف العُقول أن يَشتبه عليهم مقارنُ الفعل بسببِه[1].

الوجه الآخر: للسّببية وجهٌ آخر ينطبقُ على كلٍّ منَ القولين في الذين تولَّوا، وهو أنَّ تولِّيَهم عنِ القتال لم يكن إلا ناشئًا عن بعض ما كسبُوا منَ السّيئات من قبلُ، فإنّها هي التي أحدثتِ الضّعفَ في نفوسِهم حتى أعدَّتْها إلى ما وقع منها، ويؤيدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: 30] فهو بمعنى ما هنا إلا أنه هنالك عامٌّ، وهنا خاصٌّ بالذين تولَّوا يومَ أحُدٍ[2].

معنى الإلصاقِ استزلالُ الشّيطانِ بوساطةِ جناياتِهم

القولُ الثّاني: للإلصاقِ، كقولِك: كتبتُ بالقَلَم، والمعنى: أنه قد صدرتْ عنهم جناياتٌ، فبِواسطتِها قدِرَ الشَّيطانُ على أن يستزلَّهم لكن لا تولِّي عِنادٍ، ولا فرارٍ منَ الزَّحْف، رغبةً منهم في الدُّنيا، وإنّما ذكَّرهم الشّيطانُ ذُنوباً كانت لهم فكرهُوا البقاءَ إلا على حالٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/157.

يَرْضَوْنَهَا، أو أنّهم لمّا أذنبُوا بمفارقةِ المركزِ، أو برغبتِهم في الغنيمةِ، أو بفشلِهم عنِ الجهاد أزلَّهمُ الشّيطانُ بشُؤم هذه المعصيةِ، وأوقعَهم في الهزيمة؛ لأنَّ الذنْبَ يجرُّ إلى الذّنْبِ، كما أنَّ الطاعةَ تجرُّ إلى الطاعة، ويكونُ لطفًا فيها، أو: لمّا أذنبُوا بسببِ الفشلِ ومنازعةِ بعضِهم مع بعضٍ وقعُوا في ذلك الذّنْبِ[1].

معنى التّبعيضِ وقـوعُ الـزلّـة في بعضِ أعمالِهم

القول الثّالث: للتّبعيض، والمعنى: أنَّ هذه الزَّلَّةَ وقعتْ لهم في بعضِ ما كسبُوا لا في كلِّ ما كسبُوا، والمرادُ منه بيانُ أنّهم ما كفرُوا وما تركُوا دينَهم، بل هذه زلّةٌ وقعتْ لهم في بعضِ أعمالِهم[2]، فالباءُ على أصلِها وأنَّ الزّللَ الذي وقع هو عينُ ما كسبُوا منَ التولّي عنِ القتال[3].

عِلّةُ تَكرارِ الإخبارِ بالعَفوِ:

تأنيسُ المؤمنين بالعفوِ بعد ما أصـابَـهـم مـنَ الغمِّ

صرّح السِّياقُ بالعَفوِ عنهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: 152] وأعادَه هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ مكرِّرًا الإخبارَ بالعَفو تأنيسًا لهم[4]، فهو عفوٌ خاصٌّ بالمؤمنين يُراد به أنّ ذنبَهم يومَ أُحُدٍ الذي كان من شأنِه أن يُعاقَبَ عليه في الدُّنيا والآخرةِ قد كانت عقوبتُه الدّنيويةُ تربيةً وتمحيصًا، وعفا اللّه عنِ العقوبة عليه في الآخرة[5].

براعةُ التّوكيدِ في جُملة العَفو:

وجـهُ الـتّـوكـيـدِ لـتـبـديـدِ حـيرةِ الـنّـفـوسِ، والشّعورِ بقُربِ الله منهم تأييدًا وتسديدًا

أكّد سبحانه عفوَه بأربعةِ تأكيداتٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾:

أوّلها: باللّام في (لقد) فهي تُنبئ عنِ القسَم.

الثّاني: بـ (قد)؛ فإنها تفيدُ تأكيدَ تحقّقِ القولِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/399، وابن عادل، اللباب: 6/4.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/157.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/158.

الثّالث: وصفُ الله تعالى بالمغفرةِ؛ فإنّه يؤكّدُ أنَّ العفوَ شأنٌ في شؤونِه سبحانه.

الرابع: الوصفُ بالحِلْم فإنه يفيدُ: أنَّه سبحانه لَا يسارعُ عبادَه بالعقاب، ولا يعاجلُهم به: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45].

وفائدةُ هذه التَّوكيدات؛ لتذهب عن نفوسِهم حيْرتُها، ولتنخلعَ منَ الماضي ولتستقبلَ الحاضرَ والمستقبلَ بقلبٍ جريءٍ ثابتٍ، ولتشعرَ بعونِ اللّه وتوفيقِه وتأييدِه وتسديدِه[1]، بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان، وبنفوسٍ متغلّبةٍ على أهوائها مطيعةٍ لتعاليمِ دينِها[2].

إظهارُ اسمِ الله تعالى في موطنِ العَفو لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التَّعليلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ تعليلٌ لما قبْلَه على سبيل التَّحقيقِ، وفي إظهارِ اسم الجلالةِ تربيةٌ للمهابةِ وتأكيدٌ للتّعليل[3].

تكرارُ الاسمِ الأعظمِ تنبيهٌ على عِظَمِ الذَّنْبِ

وأُعيدَ الاسمُ الأعظمُ مُظهرًا مع أنَّ مقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، تنبيهاً على أنَّ الذّنبَ عظيمٌ والخطرَ بسببِه جسيمٌ، فلولا الاشتمالُ على جميع صفاتِ الكمالِ لعُوجِلوا بأعظمِ النَّكالِ[4].

سرُّ إردافِ المغفرةِ بالحِلْمِ:

مغفرتُه سبحانه مُحاطَةٌ بالحِلْمِ المورِّثِ للطَّمأنينةِ

لّما كان غُفرُ الذُّنوبِ قد يكون مع تحمّلٍ لها، واستبقاءٍ لآثارِها نفاه سبحانه بقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: حيث لم يُعاملِ المتولِّين حذرَ القَتْل معاملةَ الذين خرجُوا من ديارهم حذرَ الموت، فقال لهم اللّه: موتوا[5]، فالحليمُ هو الذي لَا يعاجلُ بالعقوبة فيؤخّرُ العاصيَ ليستدركَ فيتّقي لما يُغفرُ له[6]، وفي ذلك توريثٌ للطَّمأنينةِ لدى العبادِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466 - 1467.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/433.

دَلالةُ جملةِ التَّذييلِ:

غـفـر الـذُّنـوبِ والحلمُ بالعباد سببٌ في عدم تعجيلِ العقوبةِ

معنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ "أي: محَّاءٌ للذّنوب عيناً وأثراً"[1]، فالمرادُ به المعنى الأعمُّ الشاملُ لمغفرة الذنْبِ والتّجاوُزِ عنه، وشأنُ التّذييلِ التّعميمُ[2]، فلأنَّه غفورٌ حليمٌ لا يعجلُ بتحتيم العقابِ، ومن آيات مغفرتِه لهم وحِلْمِه بهم توفيقُهم للاستفادة ممّا وقعَ منهم وإثابتُهم الغّمَّ الذي دفعهم إلى التّوبة حتى تمحّصَ ما في قلوبهم واستحقُّوا العفوَ عن ذنوبهم[3]، فالجملةُ الكريمةُ تحذيرٌ وتبشيرٌ، وترغيبٌ وترهيبٌ، لكي لا يتجاسر النّاسُ على ارتكابِ ما نهى اللّه عنه، ولا ييأسُوا من رحمته متى تابُوا وأنابُوا[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشيطان، وإبليس:

وردُ ذكرِ إبليس العَلَميَّةُ على العِصيان، وموردُ ذكرِ الشّيطان مواضعُ الأفعالِ الشّريرةِ، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير

ورد لفظُ إبليس في القرآن الكريم اسمًا علَمًا للذي عصى اللّه تعالى، في أحد عشر موضعًا، وغالبها في امتناعِه منَ الامتثال لأمرِ اللّه بالسُّجود لآدم عليه السلام؛ تكبُّرًا واستعلاءً. أمَّا لفظُ الشّيطانِ فيقعُ على كلِّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجنِّ، والإنسِ، والدّوابِّ، وورد في القرآن في مواضعِ الأفعال الشّريرةِ، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير[5]، ومناطُ الكلام في الآية الكريمة على الوسوسةِ، واستزلالِ المؤمنين في المعركة، فناسبَه لفظُ الشيطان، واللّه أعلم.

الاكتساب، والاجتراح:

الاكتسابُ عامٌّ في الخيرِ والشّرِّ، والاجتراحُ خاصٌّ بمعاصِي الكفّارِ

إنَّ الكسْبَ والجرحَ يُراد بهما اكتسابُ المعاصي والآثام، ولكنَّ الجرحَ وردَ في اكتساب الكُفر، أمّا الكسبُ فهو عامٌّ يقع في اكتسابِ المؤمنِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/456.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/158.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/540.
(5) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 141.

والكافرِ، ويدلُّ ذلك على عمومِ الكسب في الخير والشّرِّ، وخصوصِ الجرحِ في المعاصي والآثام، ولذلك جاءت قرينةُ السيئات عمومًا في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21][1].

العفو، والمغفرة، والرَّحْمة:

العفوُ إسقاطٌ للعقاب، والمغفرةُ سترٌ للجُرم صونًا له من عذابِ التَّخجيل والفضيحةِ، كأنَّ العبدَ يقول: أطلُبُ منك العفوَ، وإذا عفوتَ عنِّي فاسترهُ عليَّ؛ فإنَّ الخلاصَ من عذاب النَّارِ إنَّما يطيبُ، إذا حصل عَقِيبَه الخلاصُ من عذاب الفضيحةِ، فهما تخلّصٌ من عقابٍ[2]، أمَّا رحمةُ اللّهِ التي وصلت لخلقه فقسمان[3]:

العفوُ إسقاطٌ للعقوبة، والمغفرةُ سترٌ للجُرم، والرَّحْمةُ طلبٌ للثّواب

أ- رحمة عامة: وسعت كل شيء من العالم العلوي والسُّفلي، ووصلت لكل حي مكلف وغير مكلف، برٍّ وفاجر، مؤمنٍ وكافر، وهي رحمة جسدية، دنيوية، دينية، ومن آثارها: خلق المخلوقات وإيجادها من العدم على صورة محكمة.

ب- الرحمة الخاصة: التي خص الله بها عباده الصالحين وأولياءه المتقين، وهي رحمة إيمانية، دينية، دنيوية، أخروية، ومن آثارها: امتنانه على أوليائه باستغفار ودعاء أفضل ملائكته - حملة العرش - لهم، وإدخال أوليائه الجنة التي هي أثر من آثار رحمة الرحمن الرحيم، ورحمته - ﷻ - في غاية الكمال والجلال، فلا ضعف معها ولا رقَّة ولا عجز، بل رحمةٌ مع عزة وقوة وقدرة تامة، قال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ [السجدة: 6].

ولا قُدرةَ لأحدٍ على فعلِ الطَّاعة وتركِ المعصيةِ إلاَّ برحمته.

المغفرةُ فيها لطفٌ وتكريمٌ؛ لأنّ استعمالَها في العطيّةِ الحِسّيةِ

(1) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 170 - 171.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/124، وابن عادل، اللباب: 4/542.

(3) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص: 368، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/436، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 828.

يُقصدُ بها الحفظُ كما في المِغْفَر، وقولُهم: اصْبُغ ثوبَك بالسّواد فإنه أغفرُ لوسخِه، والعفوُ الترك، كأنه تَرْكُ الشّيءِ مغطًّى بغطائه لمّا لم يُؤْخَذْ منه[1]، فالعفوُ، والمغفرةُ من باب دفْعِ المُؤلِم، والرَّحْمةُ من باب جلْبِ الملائم، ودفعُ المؤلِم آكدُ[2].

المغفرةُ مَظنّةُ اللُّطفِ والتّكريمِ؛ لأنها من بابِ دفْعِ المُؤلِمِ، والرَّحْمةُ من بابِ جلْبِ الملائمِ.

والجمعُ بين العفوِ والمغفرةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ من جزيلِ عطاياهُ، ومديدِ هدايَاهُ، وواسعِ حِلْمِه بأن يرفعَ العقابَ، ويسترَ مُواقِعَهُ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).

(2) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 434 - 435، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/343.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»